العدد الرابع
نيسان (ابريل)
السنة التاسعة

No. 4 Apr.
9ème année

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

نحو ثقافة عربية جديدة

بقلم شاكر مصطفى

اذا وقع كتاب (الغثيان) لسارتر ، بين يديك مرة ، فتصيد شخصية (العصامي) فيه . انه الهيكل العظمي لمثقف الصورة المسطحة لفكر ذي أبعاد . ولقد يكون من الخصب ان نلتقي به على هذه الاسطر الاولى من الحديث . فهو كاتب بسيط ، في بلد صغير . ولكن الهوس الى المعرفة قد سحقه . وكان واثقا ، الثقة الحسابية الميكانيكية ، من انه يستطيع ، بالمعرفة ، حل مشاكل الحياة .. فما عليه اذن الا ان يبدأ القراءة !

ورآه الناس ، ذات يوم ، يدخل ، في خطى من الكبرياء ، مكتبة البلد العامة . وينظر في تحد الى الكتب : الاف الكتب ، عشرات الوف الكتب ، خرساء على الرفوف . ولعله قال في نفسه : (لئن مايكون ايها العلم الانساني) . وتناول اول كتاب ، على اول رف ، فبدا القراءة حسب الترتيب الابجدي . لقد بلغ ، بعد سبع سنوات ، حرف : ك ـ ل بعد ك ـ ف ، ، وانتقل فجأة من دراسة الحشرات ذات الجناح الغمدي الى نظرية الكانتا .. وما يزال يقرأ !..

ولن ننتظره نحن ، حتى ينتهي من حرف الياء ، في اخر كتاب على اخر رف من الرفوف ، انا نعرف ماذا ينتظره . وهل ثمة غير الفراغ ؟ سطور الكتب وحدها ، لاتهب غير الفراغ ، الفراغ البليد السلبي ، ولا يأس ، لايأس ، لا ارتياع . انه اطمئنان لبد . من مثله أطمئنان من تمتع بالحياة والولد والعمل والمحراب الى حقه البديهي في جنة الخلد . ان حشرة تنغل في سواد الحروف ، قد تقرض الصفحات ، كل الصفحات ، ولكنها تبقى حشرة !.. حتى ، في اعلى صورها ، لن تكون اكثر من عين لصيقة بطين الارض !

وما عن افاق الحشرات سأتحدث . ولا في الاطمئنان الكسيح عند رفوف المكتبة . ثمة مدى اخر وراء القراءة وشراع الكتب ، مدى الانسان الذي يربط بين وجوده والفكر : « افكر فانا موجود » ! ولقد يرى الوجود اي فراغ عدمي ، او صراعا حيوانيا لبقاء ، او معراجا من المعراج الى دنيا الملائكة ، ولكنه يعرف انه انما « كان » ، وانما كان « يعقل » ، اي يعرف ويقلق ، لتفجير انسانية اكثف واكثر عمقا فيه ، لخلق مصير جدير بالانسان .

اتراني اذا ما اطللت على هذا المدى ، استطعت اذن ان اعرف الثقافة ؟ اتراها ذلك التوتر الكياني ، المتعاظم الحي ، الذي لايعطي الوجود المعنى فحسب ولكن القيمة الانسانية أيضا ؟

لست أزعم اني على المفصل ، في الجواب . كما لن أزعم اني على الجادة السوية ، في الخطوط التي سوف ادور وامحو . لاصوب ان اقول : اني ساثير أسئلة ، اهز موجات في المدى الجدلي ، أحك جراحا ، ما التوق ؟ ما الربيع ؟ ما شهوة الخلق امامها ؟

واذا كانت « الثقافة » من تلك الكلمات التي ما ازدادت مشاوير ، بين الالسنة والشفاه ، الا ازدادت غموضا ، ككرة الثلج تضخم ثم تضخم كلما تدحرجت ، فلا بد اذن من ان ننطلق من مفاهيم واضحة ، من نقاط لقاء عند مزراب عين . لابد من مصاداة الثقافة في عريها التشريحي : ما قوامها ؟ ما العناصر المكونة ؟

لقد نستطيع ، في سرب من التحليل ، ان نستشف بعض الذي نبغي : في ميدان الفكر اولا : هل الثقافة هي المعرفة ؟ ان المثل القرآني للحمار والاسفار قد اوضح ذلك قبلي ، فما هي المعرفة ـ او ماهي بها وحدها ـ . لا . ولا هي توضع علم في حجيرات دماغ ، ولا آلة رفاه يمنحها العلم التطبيقي للبشر . ولكنها النسيج المنطقي الذي يكمن وراء المعرفة ، والفكر الذي يتمثل العلم نسغا وتفتحا ، وتفاعل الخبرات التي تحدد كيفية اتصال الانسان بعالم الاشياء .. من هذه الزاوية ، زاوية المعرفة ، تبدو الثقافة عينا تسع الكون اطلاعا واحاطة ، متزايدين ، لحظة بعد لحظة . ولكن هذه العين هي الجانب المسطح منها . هي ثقافة .. ولكن ببعدين .

والثقافة ثانيا هي القيم المترتبة على السمو الفكري ، وهي عمل ضمن حدود تلك القيم ، سواء على الصعيد الفردي او

القومي او الانساني ـ وما هي في النهاية غير صعيد واحد من هذه الزاوية هي موقف اخلاقي ايضا ، خطة سير في مستوى النبل الفكري . هي قفزة من موقف الانسان ـ الشاهد ، الى موقف الانسان ـ الحكم ، وتسام يعطي الثقافة بعدها الثالث ، يمنحها الحجم الانساني .

والثقافة ثالثا ، تذوق للوجود وراء المنفعة ، وفوق زحف الديدان . انها موقف بديعي ، فرح من بعض آلائه غبطة الصوفي بالوصول والاشراق . واذا كان العلم يعطينا صورة الحياة ، كما هي ، وكانت القيم تعكس صوره الحياة من خلالنا ، فالثقافة عند هذه الزاوية الثالثة ، تلتقي ببعدها الرابع . هي ها هنا : نحن ، من خلال نظرتنا الجمالية الى الكون ، من خلال حب عرم يكشف فينا الوجود .

والثقافة ، بعد ، ليست الجمع الرياضي بين ذلك كله . ليست معادلة في جفاف الورق ، ليست :

معرفة + قيم + جمال = ثقافة .

فمن عادة المبضع ان يحيل الجسد الحي الى جثة . والروح ماروضها بعد مخبر التحليل . الثقافة هي وحدة كل تلك العناصر في سياق انساني حركي « دينامي » . هي انسجامها في كون موار متفاعل . هي ، في وقت معا: الانسان من خلال العلم العقلي ، ونبل الفكر من وراء المادة ، وفرح الحياة من فوق كل أولئك .

وما ذكرت ، بعد هذا ، اذ ذكرت ، الا الجانب الفردي من الثقافة . هذه العناصر الثلاثة ، على تعقدها ، لم تكتمل بعد حدودا لتكون الثقافة . ثمة عنصرها الرابع ، كنسيج حياتي ـ اجتماعي ، في الناس .

بلى ! الثقافة مناخ . جوحي . اخذ وعطاء ضمن المجموعة الانسانية . شرط المجموعه اساسي فيها . بدون العنصر الاجتماعي ليست الثقافة ثقافة ، ولكنها تفرد اله، غربه موحشه لا اسى ولا الم .

لهذا ، ولما في الثقافه من معنى التراث ، من المشاركة في مجتمع ومن لقاء فكر بفكر ، فانها تتغذى من كل فعل ، تفه ام عظم . تتغذى من القرارات البطولية الحاسمه ، من كتاب بورقتين ، من قانون صدر في عتمة ، من الصمت في لحظات الصمت ، فلقد يكون الصمت موقفا .

والانسان ، اي انسان ، عالمي الثقافة ، بطوعه او برغمه . شمولي ولو لم يرد الى الشمول . فكره ، كالشجرة الوقاح، تحد الجذور والفروع في كل تربة ومع كل اتجاه وهواء .. ومن ذا الذي يرجع منا الى نفسه ، في نظرة تحليل هادىء، فلا يجد فيها شيئا من القرآن والانجيل ، بجانب شيء من منطق ارسطو ، وبعضا من تقويم يوليوس قيصر الى بعض من قانون نابليون ، واطرافا من نظام كوبرنيك ، ومن القصص الروسي ، ومن روائع المتنبي ، ومن حديث اهل الكلام ، ومن ذلك المجهول الذي اوقد ، أول من اوقد ، النار ؟..

ومن انت بعد ؟ انت الاف من هذه المزق التراثية مضافا اليها انت ، معادلك الخاص بك ، جوهرك الذي يميزك ، رغم التشابه ، عن ان تكون رقما في القطيع !

على ان هذا الطابع الشخصي ـ الاجتماعي في الثقافة، على ما فيه من زئبقية ، انما يشتق ، يتصل ، ينداح ، يتمرد ، يرقص ، في اطار الطابع القومي . مهما ينطلق الفكر فانه يظل برغمه في حدود الاطار ، كأني بقدر مقدور يغزل له الخطى وينام على الحدود . سمات من التشابه والتوحد ، ما تدري كيف تطل ، في مواكب الفكر ، فاذا بكل موكب وحدة ، لحن خاص في سمفونية الكون ...

الهند ظلت ثقافتها على التجربة الذاتية في الانسان ، على كشف الذات العميقة ، ابعد من حدود الحس والعقل . ظلت تبحث ابدا عن « تعادل بين الانسان وبين واقع عميق مستتر » . حتى حين غزاها العلم الغربي الحديث ، اخذ عالمها يبحث ويثبت ان النبات يحس ويتألم !

وفي الصين ، كل ثقافة الصين انصرفت الى دراسة الانسان بالنسبة لاشباهه . فعلاقات الحياة الانسانية هي التي تملأ ما بين جبين (كونغ ـ فو ـ تسي*) وجبين (ماو ـ تسه ـ تونغ) .

وانصرف اليونان الى العالم الخارجي . عيونهم كانت تلوب حول مكان الانسان في الكون ، لا حول ما هو الانسان . (اعرف نفسك بنفسك) ، هذا الشعار السقراطي لم يطلق الاعين في الاعماق ، كما قد يبدو ، ولكن انزلها من السماء الى الارض . مما وراء الطبيعة الى هذا الاديم الذي عليه ندب .

وثقافة هذا الغرب الحديث كانت امتدادا لثقافة الاغريق ارسطو بظله العملاقي الكثيف كان صلة الجسر . فالانسان، كحيوان ، هو موضوع هذه الثقافة . والعقل ، كصانع ادوات ، والطبيعة المادية ، كمدى نظر ، هما الطريق ، كل الطريق . ولا فرق بين شيوعية علي الشرق وديمقراطية على الغرب ، فكلتاهما تنطلقان من عبادة العلم والتكنية وكلتاهما تمران بالانسان كآلة ، كجزء من آلة جبارة ،

(*) هو اسم كونفوشيوس .

الاستاذ احمد الشقيري

محامي العرب الدائم في الامم المتحدة

يقدم الى القراء العرب في كل مكان

قضايا عربية

آخر ما كتبه بأسلوبه الساحر وبيانه المقنع البليغ

في الدفاع عن مختلف القضايا العربية الراهنة

منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

٣٠٠ صفحة من القطع الكبير في طباعة فاخرة

واخراج انيق - الثمن ٤٠٠ ق.ل.

وكلتاهما جنة الغد فيها هي الرفاه ، رفاه الارض !

اهي نهائية حاسمة تلك الحدود القومية في الثقافة ؟ اهي حقا قدر من القدر هذه الفروق بين ثقافة واخرى على طرفي حد جغرافي ؟

ان خطوط التاريخ التي تشير اليها لا تستطيع ، مع الاسف ، ان تستعيد شفتي منجم او نبي ، لتطل على العد البعيد . ولكنها تستطيع ان تؤكد ان بيننا وبين الثقافة العالمية الواحدة ، زحف ملايين بعد ملايين من البشر لتسوية جبل بارض ، وتربية قلب بحب ، وانسياح مغولي في ابيض وزنجي ، وتدمير أنانيات قامت على اشبار من التراب والتاريخ ، ولقاء بوذا وسيد قريش بالسيد الذي صلب على الجلجلة (١) ...

. وستظل الثقافة تراثا قوميا الى اجيال اخرى !

• • •

ها هنا ، نضع ، ها هنا ، الجسر بين نهضتنا القومية الصاعدة وبين الحاجة الى ثقافة عربية جديدة . وهل علي ان ابرهن على وجود هذه الحاجة ؟ اذن فاني لم افهم بعد ان هذا الزحف القومي المقدس قد اخذ يفرض قيمه وحاجاته . حتى اشد العيون عشى اخذت تتلمس مكان النور . ان نهضة بدون فلسفة هي قفزة من السكون ، عاصفة من رمال لا هي اريدت لشيء وليست من بعد شيئا ! الفكر من النهضة ، ما هي العين من طموح النسر وجناحه المديد !

فأين الثقافة التي تساند هذا الالق القومي الصاعد ؟

لتستطيعن ان تعرف عمق الفراغ من قلق الطليعة ، من غربتها ، من الفقر الذي يعض اضلاعها !

القلق ؟ بلى ! انه صراخ من كل عين . ولست اعني هذا القلق المستعار ، قلق العدم والضياع الذي يرهق حضارة الغرب ، ولكن هذا التطلع الكياني العنيف الى شيء اخر افضل ، وهذا التساؤل عما اذا كان ذلك الشيء الافضل في حيز الامكان . انه نزوع ايجابي ، ما نزوع الحقل في اذار عنده ، الى العطاء ، وما شهوة التفتح في صدر ورده ، وما الشباب العرم في اعطاف صبية ؟

والغربة ايضا ؟ بلى ! كم فينا من يشعر انه هنا ، في بلده ، غريب ، حتى اذا ركب الشراع شعر انه هناك ايضا ، وراء البحر ، غريب ! غربة الروح ، هي اللعنة التي تطارد جيلنا بين جو ثقافي مات ، وجو ثقافي مقبل لما يتكون بعد . انا لا نتكلم كما في برج بابل ، لغات مختلفة ، ولكن المأساة انا ، في اللغة الواحدة التي نتكلم ، يضل معنى الكلمة لدينا بين اثنين !

والفقر ؟ بلى ايضا وايضا . لن يعجزك ان تعرف الفقر الثقافي في الوجوه حولك . ولكني محدثك كذلك عن فقر اخر : اعرفت ألم الشجرة يرهقها الثمر فلا تمتد اليها يد لقطاف ؟ ما الفقر في قلة من يعطي فقط ولكنه ايضا في قلة من يأخذ . من ارهقتهم شهوة العطاء سواء في الفقر مع من يمزقهم الجوع ! ونحن في حاجة الى الاخذين قدر حاجتنا الى المعطين . في قصيدة (البليكان) يطير طائر (البجع) ، فوق الموج ، بكل فج ،يطير ، يطير . فلا يجد غذاء لصغاره . فاذا عاد وسمع عويل الجوع في مناقيرهم ضرب صدره بمنقاره حتى مزقه وقدمه طعاما دافئا للصغار . ان ما يعطي تلك اللحظة نبلها السامي ، انه كان هنالك صغار ، وكان هنالك جوع ، وان الصغار ، من بعد، قد عرفوا الغذاء !

القلق ، والغربة والفقر امـا تكفي علامات على عمق الحاجة القائمة ؟ لقد تكفي علامات فقط ولكنها لا تكفي عناصر تكوين . ان الحاجة شيء وامكان الوجود شيء اخر . والثقافة الاصيلة ، لكل اصيل ، تحتاج الى الشروط المكونة ، لتكون . لقد يتمرد بعض النبات الشيطاني ، على القفر ، فينبت في القفر . وتتشبث زعرورة الجبل الهرمة بالجبل فتبقى ولكن متى كان ذلك روضا ونباتا ؟

ان علينا ان نعترف :

اولا : بما بين الشروط الاقتصادية للانسان وبين قيمه الثقافية من الترابط الوثيق . ان المعدة ، هذا الجوف الذي لا يمتلىء ، كبرميل بنات دانائيد ، اللواتي عاقبتهن الآلهة بملئه ، وهو لا قعر له ، المعدة قريبة ، شديدة القرب، من علبة العظم والاعصاب في اعلى الجمجمة ! واذا استطعنا ان نمكر بفكرنا طيا وزيفا واجترارا فليس مع غريزة الجوع من مكر . فمن العبث الكلام عن ثقافة رفيعة بين ملايين الجياع . ان القيم الكبرى لا تنبت من فقر ولكن من غنى . واما المعد الفارغة فقيمتها الكبرى : الرغيف !

ثم ان علينا ان نعترف **ثانيا** : بما بين شروط التعليم والثقافة من الصلة . فان لم يكثر المتعلمون الافا بعد الاف لم يظهر المثقف . ان الطبيعة تنثر مليون بذرة مشمش

(١) لعل هذه من اثقل مهمات اليونسكو .

لتحول واحدة منها شجرة وثمرا . وتصوغ مايون بيضة في السمك لتلقح منها سمكة ! وقد خلق البشر منذ ازل لست تدري فجره ، فكم ذا فيهم من ابن سينا ومن بوذا ومن غوته ؟ وكم ذا فيهم من عقل في مستوى اينشتاين والخوارزمي وارسطو ؟ وهل تفجر هؤلاء بمعجزة ، في ارض موات ؟ الم يكونوا خلاصة عصور من الجهد وملايين من السواد المهدور ؟

ثم ان علينا ان نعترف **ثالثا** : بما بين شروط المجتمع والثقافة من تفاعل . ان التفتح الاجتماعي ، كمناخ الربيع، لا زهر بدونه ولا ربيع . وكثيرا ما وجدتني آسى للملايين الذين ماتوا قبل ان يمكنهم المجتمع من تحقيق كل ما يحملون من امكان . الحرية ؟ ماذا مصاداتها وغزلها ان لم تكن وسيلة لاغناء الآتي ، لاضافة ثروة غير متوقعة الى الحياة ؟

ولو اعدنا النظر الان في هذه النهضة العربية التي تطيف بنا اذن وجدنا اننا على الصراط السوي : مستوى من المعيشة يرتفع يوما يوما وآلاف في التعليم تتزايد وعطشها اعنف من طاقة النبع ، ومجتمع ـ على كل ما يهتم به من تحجر ـ يتفتح . وما التفاؤل وهو الذي يملي هذه الكلمات ولكنه الواقع الذي نحياه . اولئك الذين يستطيعون تذكر الامس القريب ، او رفع الاعين فوق الغبار اليومي ، يستطيعون ان يؤكدوا انه صراط مستقيم

متعاون هذا الذي تنطلق عليه القوى ، خطى بعد خطى نحو الغد !

وما الغد ؟ غدنا الثقافي . ما ملامحه والحدود ؟

لاحسبن ان فيكم من يستمهلني هونا هونا لينسأل : وما الامس ؟ أليس من وقفة عند امس ؟ نحن تاريخ قبل ان نكون مصيرا ، ونحن ما كنا قبل ان نكون ما سوف نكون.

بلى ! نحن ثقافة تمتد في الماضي الفين ، ثلاثة الاف ، خمسة الاف سنة ! نحن سمو في تجريد حتى ابتكرنا الحرف ، ابجدية الدنيا وضعنا الرقم ، من بعد ، حسابا ونظاما .

نحن عين راضت الفلك ، فكل اكوانه لعبة طفل على اكفنا والتاريخ وليد .

نحن التوحيد ، ما عبد الله اصفى واسمى وانقى مما عبدنا وتصورنا منذ اخناتون وابراهيم حتى سيد قريش: صحفا اولى ، وتوراة وانجيلا وقرآنا .

نحن الاهرامات ، قبور صارت احدى اعاجيب الدنيا السبع وبرج بابل دوامة الدنيا القديمة ، ومعابد طيبة ، عبقرية المهندس والطبيب والكاهن ، لوضع الحد بين تاريخ وما قبل تاريخ ! ونحن الخط بين هؤلاء وبين ابولودوروس الدمشقي صاحب ساحة تراجان في روما والمهندس المجهول الذي صاغ لؤلؤة الحمراء !..

نحن بابيان يعلم روما الحقوق الحقوق ، ويشرع للرومان شرعة الرومان ، ارثا من حمورابي القديم وعطاء من بعد في فقه الاسلام .

نحن بطرس الرسول ، « الصخرة » التي اعطت الرومان جسدها لتأخذ منهم العرش والروح والاجيال ، وبولس الرسول تتكشف له الحق فما يبالي مكانه العظيم في الدنيا ويؤمن بالذي كان يضطهد فمن هذا وذاك غذا ملايين الملايين الى يوم يبعثون ...

نحن من السيد المسيح ومن الرسول العربي اللذين قالا، في اوج اضطهادهما ، واحد على خشبة الصلب والثاني في ظل حائط بالطائف ، كلمة واحدة : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون !

نحن موقف الرسول العربي ابن عبد الله ، بذلوا له ما يشاء على ان يهجر الحق الذي يدعو اليه فيقول : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على ان اترك هذا الامر ما تركته .

نحن عمر بن الخطاب ، عبقري الدنيا العربية ، يشرع حريتها في قوله : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، ويشرع مساواتها في قوله : « ليأتين الراعي وهو بجبل صنعاء رزقه من بيت المال وهو في مكانه » ويشرع اشتراكيتها في قوله عند العطاء : « فانما هو الرجل وحاجته ، والرجل وجهده والرجل وسابقته»!

نحن معاوية يمد بينه وبين الناس شعرة فلا تنقطع . ويدخل عليه ابو مسلم الخولاني فيقول ا السلام عليك ايها الاجير ! فاذا قالوا : بل قل الامير ! اعاد كلمته ثلاثا : ايها الاجير ! ثم قال : انما انت اجير . استأجرك رب هذا الغنم . فان انت داويت مرضاها وجمعت اولاها على اخراها وفاك سيدك الاجر وان انت لم تفعل عاقبك !

نحن قواد الفتح لم يكن قد مضى على انطلاقنا من الصحراء القفر غير سنتين ، حتى كنا نضيف الى مدن العالم وامصاره ست مدن جديدة من بنائنا ، في العراق

ـ التتمة على الصفحة ٤٩ ـ

نحو ثقافة عربية جديـــدة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

وفي الشام وفي مصر وارض المغرب .

نحن فيس المنوح ، اسطورة الوجد ، ما كان الحب الا قى واحلى منه على شفتيه وفي قلبه . جنونه سمو ولوعته دنيا من الطهر تمسح جفن الشمس !

نحن صلاح الدين ينتصر بعد حرب استعمارية ـ دينية تمتد مائتي سنة فيكفيه يوم النصر ان يخرج المغلوبون من القدس في ظل سيفه !

نحن المحاسبي ، يدخل عليه وهو في النزع صاحبه فيقول له : سمعت منك مسألة كذا فهلا اعدتها علي ؟ فاذا تردد العائد ، قال له : لان اموت وانا اعلمها خير من ان اموت وانا جاهل بها . ويشرحهـــا صاحبه ثم يغدو فلا يجاوز باب الحي حتى تعول النادبات ..

نحن مدينة الفارابي الفاضلة ، دنيا من الملأ الاعلى ، وقانون ابن سينا انجيلا للقرون في الطب بين غرب وشرق . ولزوميات المعري طودا من الفكر الممرد ، و (ابن نفيس) يكتشف الدورة الدموية والادريسي يكور الارض اول مـــن كور ، كرة من الفضة ...

نحن ابن خلدون واضع علم الاجتماع ، والخوارزمي صاحب الرياضيات وابن الهيثم ابو الفيزياء ، وابن حيان ابو علم الكيمياء ، وابن البيطار ابو علم النبات .

نحن ذلك المجهول الذي كتب الف ليلة وليلة ، ما انطلق الخيال جناحا ملونا في اروع منهـــا . فسندبادها رمز وشهريارها رمز ودليلتها رمز ، واما شهرزادها فروايـــه القرون ، على القرون !

نحن الاسطوره علم الاولين ، وملحمة الشعر الادبي ، ما صلى جمال في مثل حروفها ، وقصور الحمراء والزهراء تجسد الذوق البديعي الرهيف ، والكلمة المقدسة التـــي انزل الله ، فلا ما انزلت في خير منا !

نحن ... كفى ! من نحن . ان هذا التراث الثقـــافي يعيش في عروقنا في العميق من الذات الغربية ، يلهـــم ويقرر ويخط الطريق . ان ملامحنا مطبوعة فيه ، روحـــا مستسرة . ولست ازعم اني اتقصى تلك الملامح اذا ذكرت منهـــا :

اولا : توازن الروحي والمادي ، واسطورة ما نتهم به من روحانية وغرق في اللاحدود . انا من ضباب الغيب او كثافة المادة على مدى واحد . (انرفانا) غريبة عنا كما ان المادة ما ملكت منا الرقاب ! الاسلام ، اخر رسالاتنا فـــي الدين : لله منه قسط ، وللناس قسط . للصلاة فـــي الميزان ما للمعاملة من الاجر . وفي فلسفتنا انساب منطق ارسطو بجانب الافلاطونية الحديثة . وفي الفكر مشت صوفية ابن عربي في منحنى واحد مع ضوئيات ابن الهيثم ، وانابيق ابن حيان . ابدا ما حجب ما وراء الوجود عنـــا الوجود ولا محا عالم الشهادة . حتى جنات عدن ، بحورها العين والاكواب والاباريق ما منعتنا تصيد نعيم من مثلها على الارض ، او ليس كذلك في التاريخ ؟ .

نحن روحيون ما كانت الروحية ايجابا ، ثورة حيـــاة على عدم ، تكثيف ادراك لوحدة الانسان في الكون ، مـــا كانت المادة انسانية خلاقة ، موقفا حيا لا طريق رفـــاه في الطين ، طبيعة تؤكد ما وراء الطبيعة ، ترابا من ذلك التراب الذي مسته يد الله يوما وهو يقول للانسان ان كن. فكـــان !

ومن تلك الملامح **ثانيا** : اولية الخلقي على البديعي . القيم في ثقافتنا ، فوق الجمال وقبل الجمال . لتكـــاد الثقافه العربيه كلها تكون ثقافه القيم . الاغريق جعلوا ، حتى الآلهه ، لغوا من الفن . وحضاره الغرب الحديثة، منذ عصر النهضة ، اطلقت الجسم الانساني للعري ، وعبدت الجمال المادي على حساب الخير او دون الخير . اما في ثقافتنا فالقيم هي السيدة . ثنائيه الخير والشر تبرز في كل منعطف وعمق. وما عن صدفة ضمر جانب الفنون فيها. وما عن صدفة ضمر من تلك الفنون ، ما كان للجمال وحده: ضمر اللحن والرسم والنحت ، لقد سما التراث العربي تجريدا وتجاوزا للمادة فهو وراء الجمـــال حكم ، وقيم مطلقه تحكم الجمال ، وهو فوق الحياة طراد للمثل الخالده التي تضع حدود الحيـــاة .

ومن تلك الملامح **ثالثا** : الاحساس بالزمن . الزمان في الروح العربية ليس عدما يضيع في عدم ولكنـــه عنصر رئيسي في التكوين الحي .

لقد تهدره ثقافة الهند ، واما لدينا فهو وتر مشدود ما بين الازل والابد ، سلك يصل الاول بالآخر . فالاديان واحدة ، بعضها من بعض . والنبوة سلالة تكاد تحسبها نسبا وعائلة تجري. والزمن يغير الاحكام ويضرب الامثلة للناس ... انا لنعده بالصلوات عددا كل يوم . فرحنا بالزمن هو سر اهتمامنا بالتاريخ ، سر مجلداته . ولولا ان اللحظة ثروة لما لحقها المؤرخون تسجيلا وقيدا ...

وانما الانسان ذكر بعد فكن حديثا حسنا لمن وعى!

وفكرة الخلود ، هذه التي تسحق وجودنا سحقا ، اهي اكثر من محاولة مماثلة للانتصار على الزمن ؟ لقد علمونا انه حتى (عاد) الذي اعطى عمر النسور السبعة ، راى بعينيه انهيار نسره الاخير ريشا وجناحا ونفسا !

ومن تلك الملامح **رابعا** الشعور لا بكرامة الانســـان فحسب ولكن بسموه الاصيل . انه المخلوق المميز . مـــا هو بحيوان في ثقافتنا ولكنه ظاهرة الهية في الارض . ولو كان ... اذن لانهت حيوانيته انه قـــد « خلق على صورة الله » وان قد جعل « في الارض خليفة » !

وتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر

ان عددا من النتائج قد تحدر من النبعة . من ذلك :

ـ ان كرامة الانسان قبلية مطلقة .

ـ وان الاخوة الانسانية لا تأتي من التقاء فردية باخرى على نشز من تراب، ولكنها تنبع من التماثل الكياني العميق بين كائنين انسانيين .

ـ وان المساواة فكرة من انانيات الطين . لاعمق منهـــا واجدر بالانسان المحبة ، صلة الرحم بين اخ واخ .

ـ وان الانسانية هي مدى التسامي ، ليس لها ان تبلغ الالوهة او نصف ـ الالوهة . تنقطع دون ذلك الانفاس والامداء ولكن لها ان تكثف الانسانية وتحقق فيها نبل مـــا فوق الانسان !

عالم الوهم ... نحن صغنـــا رؤاه
واردنـــاه ان يكـــون فكـــانا ...
لست تستطيع ان تكـــون الهـــا
فـــان استطعت فلتكـــن انســـانا

ولن اذهب بعد ، مع هذه الملامح نقبا . فلقد تكل يداي ولقد تضللني الشعاب . وما اثرتها الا لاقول اني ما انسيت

التراث الثقافي العربي.. واعرف ما هو في كياننا القومي وانه،كما كان في الامس، كذلك سيكون في الغد،واذا ما كنا نطرق ابواب الآتي، فهذه الثروةالعربية من الفكر هي ثروتنا الانسانية التي نحمل ... ستعيش فينا كيانا وخطى ، ارايت سرب القدر ؟.

مهلا ! نقطة واحدة لا بد من ان اسرع اليها عند هذا المنعطف من الحديث ، هي ان هذا التراث التاريخي الطويل قد جف الان . جف لانه يتميز بالحياة . اليس في دورة الحياة مكان لفصل شتاء ؟ سبع مائة سنة من القشور والرماد والتحجر قد غشيته سنة بعد سنة . الزمن الذي تجاوزه لم يعد ممكنا ان يعود اليه . وهل يكر الزمن رجوعا ؟ انقطعت الينابيع عن ان تسقي الفاعليات والتطلع فيه . فالبراعم جفاف وصفرة موت ، منذ قرون طوال عجاف . النسغ الذي كان يطلع فينا امثال البيروني والمعري ، وصلاح الدين وابن رشد جمد على شفتي كانون وكانون : كانون المماليك وكانون الترك !

واذا لم يعد النسغ نسغا فيجب الا يكون عبئا ! انا نحمل الماضي كله فينا ، بلى ! ولكن فيم تحويله غلا بين عنق وقدم وفي الامكان ان يكون نورا ، ثقة ، تطلعا ، فيما بين الضلوع والشمس ملعبه ؟ اعين مشدودة بامراس كتان الى صم جندل لا نريدها ، بئست الاعين . « افمن يمشي مكبا على وجهه اهدى ام من يمشي سويا على صراط مستقيم » ؟

ان رسالتنا للغد ان نعرف كيف نجعل من ذلك الماضي اتجاها وروحا لا جثة تعبد . شعلة في القلب لا عبئا يرهق الظهور !

هنا عند هذه النقطة اجدني قد بدأت في التنبؤ للغد ، غدنا الثقافي الجديد . بدأت اتقرى، بلمس، خطوطه الكبرى . وما تغريني لتيرا حكايات النجوم وما تروى . انها عمياء مثلي : . ولكن الرجم بالغيب الهيه ، ولقد يكون حاجه او طائفا من نبوة : فان لم تلبسوه على ذلك فاقبلوه ، مثلي ، اماني في الاماني ورجاء من الرجاء !

ثقافتنا العربية ستكون او يجب ان تكون :

اولا : متصله بالماضي العربي . متصله اصول لا مكررة . وما في طوقنا التمرد على الماضي ، انه اذن العدم الرهيب ونكران من نحن . ولا في طوقنا الخصب العبوديه له فلقد استنزف عطاء وابداعا . ولكنا سنعيشه تجربه جديدة . سنعود اليه في تمثل جديد له لنتجاوزه . هذه النوسة الجدلية ، بين الماضي والمستقبل ، هي المدى الخصب . وكما عاش الغرب ، في عصر النهضه ، ثقافة الاغريق في تجربة كيانيه جديدة لتكون هذه الحضارة الغربية القائمه ، كذلك نعيش تراثنا الثقافي ، في ثورة ضمن التراث ، لا من فوق التراث ولا من وراء ظهره . انه ندب لذلك الماضي الى قيم جديدة ، اطلاق له في ملاعب اخرى على الفلك الدائر . تطور ذاتي في داخله نحو الاتي ، لاتطور موضوعي من حيث جوهر الثقافة وماهيتها العميقة . تجديد في فهمنا له لا في كيانه . لانريد متنبيا ثانيا ولا ابن سينا اخر ولا بنية تحكي الحمراء او نسخة توأما لالف ليلة وليلة . انهم على رفوف مكاتبنا ، وفي الارض يملأون الارض. ولقد نهدم منهم صروحا ونمسح ثم نعيد ، في تجربة خلق جديدة، كما بدأنا اول خلق نعيده . ومن ذا جعلهم الصروح التي لا تمس ؟ ام من ذا فرض ان يكونوا وان يبقوا الكلمه الاخيرة ؟ ان لنا ــ وفاء لرسالة امتنا المبدعة على الاقل ــ ان نقول الكلمة الاخرى بعد الاولى وان نضع قيم الغد بالحق نفسه الذي وضعنا فيه قيم الامس .

وللصلة بالماضي معنى اخر ؟ في التكوين القومي ، اذا ما قاربنا افق الثقافة الغربية الحديثة ، وما نأخذ منها وما ندع . فلقد نستطيع ان ندجج جيشا وناوي حديدا ونشيد اشتراكية ، ونقبس « تكنية » الغرب نصرا نصيرا . ما أولئك بالجلى . ولا في ذلك كبير طماح او قحوم . ولقد تكون هذه بعض حاجاتنا ، ولقد نصبح فيها الدولة المتفوقة . ولكنا اذا اقتصرنا علينا فانا ، اذ ذاك ، لن نكون نحن . نصبح رقما في المجموعة ، لا اللحن العربي المميز . واحدة من الامم في القطيع لا الامة التي تخطط لنفسها وبنفسها ، بيد من قدر ، وتقحم، على المصير المصير، وتفيض ــ كما تعودت ــ من ذاتها على الاخرين ، قيما وعطاء ومصائر!

وثقافتنا الجديدة ستكون او يجب ان تكون :

ثانيا : ثورية ، ما التمرد اريد ، انه تفرد ، انقطاع، عزلة نسك وحشي ، والثوري يعيش الجموع ، ولا يفهم الا في علاقات التضامن مع الاخرين وثقافتنا اذا اردناها ثورية فلاننا نريدها للجماهير العربية الواسعة . وانما تبدأ الثورة «برفض الواقع لتتجاوزه ، انها افلاتة من حمأ الارض للعودة الى تذوقه ومعاناته من جديد . وكذلك نريد ثقافتنا رفضا لتجاوز وانفصالا لعودة اخرى .

والثورة موقف . اكانت ثورة لولا ان تكون موقفا ؟ ولانها موقف فهي انجذاب الى مصير ، رفع لقيمة الى مستوى الوهة . تحديد لهدف .. حتى لسدرة المنتهى قاب قوسين او ادنى ! والثقافة التي نريد انما تعبر عن « حركيتها » الخالدة بأن تكون الموقف ــ المصير !

بعد خبرة ٤٠ عاما
في الصحافة وخفايا السياسة
الاستاذ
اسكندر رياشي
يقدم كتابه الرائع

رؤساء لبنان
كما عرفتهم

الكتاب الوحيد الذي يكشف أسرار السياسة
والسياسيين في لبنان بصراحة نادرة !
٣٠٠ صفحة من الطباعة الفاخرة
الثمن ٣٠٠ ق.ل.
منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر

والثورة فعل يولد في الفرح . وهي كذلك لان الحرية جزء من تكوينها . وما تريد ثقافتنا ان تكون ثوريه الا لانها تريدها ان تكون حره ، انطلاقه بالف شراع على البحار السبعه . واذا كان الماضي يشد منها بجناح فالحريه بجناح ، ومن صراع الاضداد ، بعد هذا ، اصالتها البكر ، فهي الابداع اصيل ما كانت مقيده حرة معا . وهي توتر خلاق ما عمق ارتباطها والنزوع على الجناحين .. لن تستطيع ثقافتنا ان تكون اختيارا فقط في الاتي . انها برغمها ، صراع قدرها ان تكون في تمزق من خلال تاريخيتها ، مع الاختيار الحر ، مع المصير الذي تريد !

وثقافتنا الجديده ستكون او يجب أن تكون :

ثالثا : انسانيه . انسانيه من خلال الاصاله القومية ، وقيم هذا الاديم العربي . وان لم تعد الثقافه الى انسانيه اعمق واكثر عنفوانا فليست بثقافة . بها ان تكون معازف جن في ليل . ايه الثقافه السليمه ان تفجر في الانسان انسانيته . نار « بروميثوس » التي سرقها ليعطيها للبشر هذه هي : فكره ! وحين خلق الانسان يعمل ، فانما اريد له ان يدرك انسانيته . وانما كان الجوهر الالهي فيه يوم اطاق ذلك الادراك !

وانسانية الثقافة تعني ان تمد جناح الظل والرحمة على الملايين . ان تكون للجموع كما هي للخاصه . ان تكون مع المحراث يلحق به الغربان بين نلم وثلم ، مع مطرقه العامل تطوى الحديد ، مع مخبر العالم ، مع ناقوس الناسك مع سموات الشاعر العلي ، مع الطفل .. ان تكون حيث كانت ، عنفوان خلق .

ونحن نريد لثقافتنا بعد ، ان تكون انسانية لتعيد الثقة بالفكر الانساني . ثقافة الغرب تجابه العدم اليوم او تكاد . أسباب شتى من النقص وضلال المنهج ، تجعلها قلقا كلها . حتى اصغر طفل . الانسان « اللامنتمى » ، « الغريب » ، « المسخ » اضحت ميزة العصر الغربي هذا . لم تعد وقفا على متصوف يهذي او مصاب بخبال . ولكنها نزلت الى الدروب . ونحن مدعوون الى تفجير سبيل اخر خلال الفكر ، يعيد الثقة بالفكر .

ولا نريد لثقافتنا ان تولد في عزلة الصحراء ، او ان تتكمش عند أشبار من التخوم ، من شروط وجودها الاخذ والعطاء ، ان تنطلق لتعود اكثر خصبا فانها تغنى على العطاء . الثقافات المغلقة ماتت على الجغرافيا القاسيه لحدودها .

وما كانت الثقافات العربية الاولى الا في المركز الانساني ، لا على الشاطيء المهجور منه ! ولا خوف ، لا خوف من مادية تشوه روحنا في الغرب او روحية تطغى علينا من الهند ، لو فتحنا النوافذ ، كل النوافذ ، للرياح الاربع . فلن تظهر لدينا ثقافة تمحو بالمادة روحنا ، او فكر يدلي ارجلنا من الغيوم ، ومهما يتدفق النور ، «اكثر فاكثر من النور » فسنبقى نحن نحن ... لولا ماتقضي به هزة الخلق الجديد!

ولا ! ما ابن سينا ينفي ديكارت ولا ابن حنبل ضد توماس الاكويني ، ولا الكندي بمنكر بوذا . ولعلنا ، بالعكس ، نطمح الى ثقافة تعبر عن ابن سينا المقبل دون ان تغفل ديكارت ، وتتمثل الخوارزمي الجديد من خلال اينشتاين وتطلع معريا اخر له اعين طاغور !

وثقافتنا الجديد ستكون او يجب ان تكون :

اخيرا : بنت هذا العالم الحديث . لقد طبع الغرب عالمنا بسيماه . او نستطيع ان نمحو الطابع ؟ هذا العلم اليوم بآلائه وعقلانيته هو ابن الغرب ، وهو ليس آلة ومادة وصاروخا يقحم العزلة على النجوم . انه جو عقلي . انه تلك العقول التي امتدت من « شاطيء » التجربة البايكونية حتى معارج النسبية بأكناف المجرات ، عقلا عقلا !

ولقد تسللت ثقافة الغرب الى كل زاوية من الكرة ، والى كل صدر . كانت غزوا ماعرفته ثقافة اخرى من قبل . موطن القوة فيها انها لم تكن فكرا فقط ولكنها كانت تطبيقا ممتازا للفكر ، وكانت نعما ورفاها وانتصارات ساحقة على المادة ، لم يعد بامكان الانسان التخلي عنها .

وابرز مافي هذه الحضارة انها عبثت بالابعاد ، جميع الابعاد . ابعاد الفكر والزمن دمرتها او استعبدتها التكنيه والسرعة . تكامل التكنية جعل العصر الحديث يعيش منها في دوامة من التغير . وما سبق للناس ان عاشوا عصرا دوخهم بتغيره ، وبسرعة هذا التغير مثل هذا العصر ، ان المهندس هو الثوري اليوم . هو صانع الاعاجيب !

وابعاد الجغرافيا انكمشت على الآلة . صار كل فعل انسانيا . وكل كلمة تخص كل العالم . التقت كل ملامح الانسان وجها لوجه وفي وقت معا . انقضت كما قال مرة احد الكتاب « تلك الايام التي كان فيها الجنون تحده البحار او التلال فتمنع انتشاره بين بني الانسان جميعا .... ايام كان نيرون يلهو بقيثارة المجنون ومع ذلك تظل الحكمة متربعة على عرشها في بكين ... »

وثقافة الغرب قد غيرت ابعاد الخير والسعادة في الناس . الحلول التي قدمتها في هذا السبيل ترهق الدنيا

حربا ، باردة حينا ساخنة حينا ، وقد انكمش الخلقي امام الجمالي فما من قيمه تناط بها المثل الكبرى . بل الافكار نسبيه او تكاد ولعل الشك اضحى اهم من العقيده والنقد افضل من التقوى .

ولست لاسال : اهي ماديه هذه الثقافة الغربية أم روحانيه في الروح ؟ ومن يطيق ان يقرر ذلك والصراع بين المادة والروح قائم في اضلاعها يمزقها تمزيقا ؟.. مايهمني هو سؤال اخر : أتستطيع ثقافتنا الوليده ان تتخلى مره واحده ، عن هذه الدنيا الغريبة ، بكل قضيضها ، لتبدا من جديد ؟. ان تتمرد لتنهج طريقا اخر دون ان تخسر الكثير ؟ ما اراني اعتقد ذلك !

على اني ، في الوقت نفسه ، لست مع اولئك الذين يحسبون الا فكاك من المنهج الغربي . وكثير اولئك . لقد اعشاهم الالق الغربي حتى ليحسبونه يد القدر ، وليحسبون ان الفكر لن يصل ابعد من هذا الذي وصله ، ولن يختط طريقا اخصب ! ولا هذا ولا ذاك ، فما قيم الغرب احسن القيم ولكنها اخر القيم ، ولا الفكر الغربي بالكلمة النهائيه ولكنها اخر ماقيل . وثمة دوما امكان لطريق جديد ، كلمة اخرى تقال ... ان سمفونية الخلق لم تكمل فصولا وما يزال فيها مكان للحن جديد ، لثقافة عربية جديدة !

*

واعلم بعد هذا كله ان الثقافة ليست جهد فرد ، ولا بنت يوم او سنة . انها اجيال بعد اجيال من الجهد ، حتى ليفنى الجهد . وهي قرون من الخلق والتكوين ثم الخلق والتكوين! وليس يكفي الاعجاب والدهش مشاركة في غبطة الخلق. وليس تكفي الارادة سبيلا ووسيلة ان لم نضع انفسنا في مستوى الازمة الخالقة ، ان لم نلق على المائدة باخر مالدينا من رصيد ومن امكان .

ولقد مضى ، أسفا مضى ، عصر الانبياء واصحاب الرسالات فما من معجزة . ان علينا ان نكدس جهود الارض ، ان نعمل بأيد من تراب للغد ، لنهيىء الجو المتكامل اقتصادا ودينا وفكرا ، لقدوم المبدع ! أقول المبدع؟ اجل ! اني لاومن بضرورة قيام العمالقة المبدعين. ان التاريخ انما يجره الى الجلى هؤلاء . لقد ينبتون كالجذوع الضخمة، متفردين ، وحشيين ولكنهم خطوات قدر الى امام. قواعد جسور في الاتي ، فمم تقاس عليها الابعاد بين الارض وملاعب الاقمار . غورلي ، الروائي المعروف يروي لنا ها هنا حكايه . سارويها هذه الحكايه ...

في زمن قديم موغل في القدم ، وفي سهب تحيط به من جهاته الثلاث غابه صاريه ، كانت تعيش احدى القبائل ولكن بكد الحظ اطلع لها من وراء المجهول قبائل اخرى طردتها الى قلب الغابه ، الى الظلام والسباخ النتنه والاشجار التي لم يجرؤ على اقتحامها احد .. وبكت الخيام اطفالا ونساء ورجالا ، ولكن الاشجار العملاقة ظلت معتنقة الاغصان حتى ضد الشمس ، متشبثة الجذور في الارض السبخة ، تعزف فيها الريح العزيف المشؤوم ويتخطف انتن القبيله على الجانبين . وصفد اليأس الادرع القوية حتى كاد عقلاء القبيلة يرتدون الى الانتحار على يد الغزاة..

وبرز في القبيلة فجاه « دانكو » الشاب ، قال ان مجود التفكير على الارض لايحل المشكله . انا نضيع قوتنا في التفكير والغابة هي الغابة لا بد من شق الطريق . فلنمض وقاد « دانكو » القبيلة قدما ... غير ان الغابة كانت تتكانف يوما بعد يوم . جذور الاشجار كالافاعي كانت تقف على الطريق والاغصان والجذوع كانت كالعمالقة في احتشاد مرير مرير . واما المستنقعات فمعدة شرهة لا تمتلىء... وبدات النقمة على « دانكو » ثم أطافت به ثم ثقبت اذنيه . انه الشاب الغر الذي لايدري اين يسير . وذات يوم بينما كانت الريح كالانين الجبار والظلام يلتهم الغابة حتى كأن جميع الليالي التي انقضت منذ نشوئها قد اجتمعت اليها .. توقف شيوخ القبيلة واطافوا بدانكو يعنفونه ثم يهددونه ثم يهجمون عليه بالموت .

واشتعلت عيناه ببريق دموي ، ماذا تراه فاعلا ؟

وفجاة .. أنشب اظافره في صدره فشقه واقتلع قلبه ورفعه عاليا فوق الرؤوس . كان يشتعل اشتعال الشمس. وبينما ران الصمت على الغابة كانت جنباتها تضيء بهذه الشعلة من الحب الانساني . وتجمد الناس لم تحركهم سوى صيحة دانكو :

ـ لنمش ايضا !

وتدافعوا كالمسحورين ، وتدافعوا .. وراء القلب المشتعل . بلى ! مات كثيرون ولكنهم كانوا هذه المرة يموتون دون شكوى او دمعة !

وفجاة تقشعت الاشجار . وانفتحت الغابة عن سهب لا انقى ولا ابعد . كان عشبه مهرجان فرح في بحر من الشمس !

ولم ينتبه القوم ، في نشوة البهجة ، ان دانكو قد خر على الارض ومات . واحد منهم فقط راى ذلك . وهزه الخوف من القلب الذي كان مايزال يضطرم في جانب الجسد ، فجاء بقدمه الوحشية وسحقه . وتفجر القلب شرارات ثم انطفأ ...

ماذا يهم ؟ اما نجت القبيلة ؟

كل مابقي منه هو تلك الشرارات التي تلتمع على السهوب ، في الليل ، هدى للعابرين ...

انا نحتاج الى قلوب كثيرة من مثل قلب دانكو المنسحق واي مجد أن يقبل قلبك او قلبي بين تلك القلوب(*)

دمشق — شاكر مصطفى

(*) محاضرة القيت في المركز الثقافي في دمشق .

صدر حديثا :

رسائل عوركة

احدث ديوان

للشاعر العربي الكبير

سليمان العيسى

منشورات دار الاداب